المحاضرة التاسعة

المطلب التاسع عشر: في المطالعة

تقدم لي القول أن العلم في المدارس مهما كان راقية ومهما توفرت أسباب تحصيله لأولادنا فهو ليس إلا عبارة عن أساس لما يأتي بعده من العلوم الواسعة التي يتعلمها الإنسان بنفسه في مدرسة المستقبل، مدرسة العالم والاختبار، فإذا كان هذا شأن العلم في المدارس الراقية فكيف به في مدارسنا ولاسيما مدارس بناتنا وهي على ما نعلمه جميعا من الاقتصار على التعاليم الابتدائية البسيطة. إن الطالبات فيها ولا ريب أحوج إلى وسائل فعالة لتنوير عقولهن وتوسيع دائرة اختبارهن وتأهيلهن للواجبات العظيمة التي ستلقى إليهن، وأفضل تلك الوسائل المطالعة وادخار المعارف التي تجعل لرأس المال ما للعلم والأدب ما يؤمن معه شر الحياة ونوائبها.

فإنه ليس أفضل من المطالعة واسطة لإتمام الفائدة التي يتوخاها الإنسان في المدرسة ولاسيما ذات الخدر التي ما من سبيل غير هذا لتقدمها واتساع مداركها بعكس الرجل الذي قد يجد في معاشرة الناس ومعاملتهم ما يكسبه حنكة واختبارا عظيمين يغنيانه أحياناً عن مطالعة الكتب.

وكفى بالمطالعة فائدة للفتاة اشتغالها بها عن أمور كثيرة قد تأتي بها بعض السيدات عمدا أو اتفاقا بقصد التسلية وتمضية الوقت، وربما كان منها أعظم ضرر لهن وللآخرين كنقل الأخبار التافهة والتنديد بالغير..

هذا فضلا عما يستحوذ على السيدة من الضجر والملل من الحياة التي أكثرها بطالة وكسل مما يجعلها تعمد إلى تسلية نفسها بالزيارات والانصراف إلى الزينة والاهتمام بالأزياء الجديدة والتدخين إلى غير ذلك من الأمور التي تعود عليها بالأضرار المادية والأدبية والصحية.

فالمطالعة تشغلها عن مثل هذه الأمور فضلا عما تجده فيها من اللذة والتفكه فوق ما تقتبسه من العلوم والإرشادات وما تستزيده من المعارف بمتابعة الأخبار والاكتشافات العامية والاختراعات الفنية دون أن يكلفها ذلك كبير عناء فإن ما تتصفحه مثلا من المقالات العامية أو الأدبية أو التاريخية في دقائق قليلة وما يمكن أن تدخره من لقطات الأخبار وزبدة المعاني بمجرد إلقاء النظر على أسطرها الوجيزة، قد يبذل كاتبها الساعات والأيام شاحذا قريحته بأهميته منقبا في المؤلفات باحثا في تواريخ الأمم ليستخلص من أفكار العلماء وأقوال الفلاسفة البلغاء ما يبني عليه تلك المقالة التي قد تصلنا مسبوكة في قالب البلاغة والاختصار حاوية كلا شاق وراقت مطالعته من الحب والأخبار كزهرة استمدت من الأرض غذاءها واكتسبت من جمال الطبيعة نضارة ألوانها وحسن تركيبها فظهرت لنا بأبهى رونق وألطف منظر لا يعوزنا سوى مد يدنا لاقتطافها.

ومتى عمّ العلم والمطالعة أفراد السيدات واشتغلن بهما عما لا ينتج لهن منه فائدة أصبح ذلك الميل فيهن طبيعيا فانصرفن إلى تداول الأحاديث الجليلة النفع وكتابة الفصول المطولة في ذلك وإنشاء

الجمعيات العامية والأدبية والخيرية التي قد يكون منها أعظم فائدة لهن وأفضل واسطة لتقدمهن، وقد تمكن السيدة من المطالعة بمجرد معرفتها القراءة والكتابة فترتقي بواسطتهما في المعارف إلى حد الوقوف مع أهل العلم. ذكر أحد الأطباء الانجليز في حفلة لا أذكر تاريخها ومكانها قال أن أكثر نسائنا اللواتي اشتهرن في حسن الإنشاء وذاعت شهرتهن في عالم الأدب والعالم لسن من حزن النصيب الكافي من التعاليم المدرسية بل هن أحرزن هذا المقام العامي الرفيع بانصبابهنَّ على مطالعة الكتب المفيدة وتصفح الأخبار العامية والمجلات الأدبية.

وهكذا نرى أن للمطالعة شأنا عظيما في ترقية العقل وتوسيع المدارك إنما يجب الحذر من الكتب المفسدة للآداب والمشوهة للأخلاق فإنها قد تؤثر في النفس تأثيراً سيئاً.

وعندي أن لا تطالع الفتاة كتاباً أو جريدة إلا بعد أن يطالعها أبواها ويتأكدا من فائدتها لها أما الروايات فالأفضل أن تمتنع البنات عن مطالعتها قبل بلوغ السن التي ترسخ فيها آدابهن على شكل لا يخشى مع تقلقلها فإنه مهما كانت الرواية حسنة المعنى جزيلة الألفاظ أدبية المغزى فإنها لا تخلو من حوادث غرامية وحيل فنية تنبه أفكار الفتاة وعواطفها إلى أمور لا تزال تجهلها وقد لا يفيدها أن تطلع عليها وتلم بأسرارها في زمن الحداثة والصبوة.

وما يقال في اختيار الكتب المفيدة للمطالعة يقال أيضا في اختيار الأصدقاء الملائمين للمعاشرة لأن الكتاب والصديق واحد من حيث

ائتناس المرء بهما والتأثر من معانيهما، ولذلك استأذن حضرات السيدات البحث في آداب المعاشرة.

المطلب العشرون : في آداب المعاشرة

للمعاشرة آداب ينبغي أن يحافظ عليها المرء في جميع معاملاته سواء في بيته أو بين أصدقائه ومعارفه مع رؤسائه أو خدمه وكل من يتعامل معهم كبارا وصغار نساء ورجالا فإنه مهما ارتفعت مظاهر الكلفة واشتدت رابطة الوداد بين صديقين أو أخوين أو زوجين فلا بد لكل منهم من مراعاة شعائر الآخر وإتمام ما عليه من الواجبات نحوه، وعلى ذلك نجد الغربيين يعلمون أولادهم آداب السلوك منذ الصغر بحيث يشبون وهم على علم تام بماهية واجباتهم نحو القريب والغريب فلا يشذون عن مصطلحاتهم الاجتماعية ولا تفوتهم معرفة واجباتهم البيتية.

أما نحن فقلَّ من يكترث منا لتعليم أولاده هذه الواجبات بل تترك ذلك إلى الطبيعة ثقة بأن ما يفوتهم تعامله منا يعلمهم إياه الاختيار، ولذلك ترى فتياتنا يرتبكن في أصغر الاجتماعات ويتلجلجن في أبسط الأحاديث لأنهن لسن على علم من الخطة التي يجب أن يتبعنها في أحاديثهن ومقابلاتهنَّ داخل المنازل وخارجها على المائدة وفي الطرق والمنتزهات والأسواق.

فإننا إذا راقبنا فتاتين أوربية وشرقية في وقت الزيارات لرأينا الأولى تستقبل ضيوفها بلطف وابتسام وتجالسهم وتحادث كلا منهم بما يقتضيه المقام دون أن يبدو عليها اضطراب أو ارتباك بل كأنما هي تقوم بعمل

عادي تعلمته وألفته حتى أصبح من الأمور السهلة لديها في حين أن الأخرى لا تكاد تقع عينها على زائراتها حتى تضطرب ويعلو وجهها احمرار الحياء والخجل فتتقدم للسلام عليهن وهي تتعثر بأذيالها وتكاد لا تملك نفسها من شدة الارتباك مما يستولي عليها من الحيرة والتردد في اتخاذ المكان المناسب لجلوسها والأحاديث التي يحسن البحث فيها وكثيرا ما يبدو منها تقصير يدعو للانتقاد عليها وهذا التقصير يظهر أيضا في أطفالنا وخدمنا وكل من تضمه منازلنا.

ولا يصلح ذلك إلا إذا اعتنت الأم بتعليم صغارها آداب السلوك ودربت خدمها على معرفة الواجبات التي يلزم أن يتبعوها ويحافظوا عليها فتستقيم أحوال الأسرة وتظللهم الراحة والسرور.

وأول ما يجب على الأم أن تعلم أولادها وجوب احترام بعضهم بعضا فلا تسمح لأحدهم أن يشتم الآخر أو يدعو عليه أو ينقل عنه خبر كاذبا أو يتهمه بأمر هو بريء منه لمجرد تكديره أو التشفي منه وبذلك تعلمهم وجوب احترام أنفسهم وإجلال الآخرين وينبغي أيضا أن تفرض على كل منهم أن يخدم الآخر ويساعده فيما يحتاج منه ومن يذعن له ولا يستأثر بشيء دونه ثم تعلمهم كيف يجب أن يسلكوا في حضرة الزائرين وكيف يعلمون الخدم وما هي الآداب التي يجب أن يتبعوها على المائدة وفي الاجتماعات وما هي الملابس التي تليق أن يرتدوا بها إلى غير ذلك مما لا يخفى على فطنتكن فإن:

صغير السن في التأديب يرجى ولا يرجى لتأديبٍ كبيرُ

وأهم ما يطلب من الأم هو تعليم فتاتها آداب المعاملات الزوجية ويجب أن تفهم الفتاة أن أول شرط لازم في هناء المعيشة الزوجية هو الحب المتبادل بين الزوجين تلك العاطفة السامية التي تشرك قلبيهما فيبتهجان بتقاسمهما الأفراح ويقويان على احتمال الأحزان ولا يكون الحب بالتدليل وترديد عبارات الوداد ولا بالتزين وإظهار الانعطاف بل يكون بإنكار الذات وآثار كل من الزوجين الآخر على نفسه والاهتمام به في العسر واليسر.